(١)

الاتصال الروحي في عصرنا الحاضر

محاضرة بدار الشبان المسيحيين

١٩ شعبان ١٣٧٨ هـ - ٢٧ فبراير ١٩٥٩ م

(ألقيت المحاضرة مساءً وقد أعقبها بعض الاستفسارات)

بالروح نبدأ مبتهلين إلى الله، متوجهين إليه أن يوفقنا - متحدثين وسامعين - للفهم عن هذه الحقيقة الكبرى، بها نتوجه إلى الله الحقيقة الأزلية المجردة، إنسان الوجود الأزلي، أب الآباء، وخالق الأشياء، وروح الأرواح، وما وراء الموجودات والأشباح. نتوجه إليه متوسلين بسر الحياة من سره، وقدس الحياة من قدسه أن يجعلنا من المقبولين عنده، المرضيين فيه بسر رحمته، وبسر وجوده.. وجوده.

إخواني ...إنّا ونحن في صدد الحديث عن الروح، لا نتحدث عن جوهر الروح أو كنهه، ولكنّا نتحدث عن ظواهر اتصاله في العصر الحديث. وما دمنا سنتكلم عن ظواهر اتصاله في العصر الحديث- وإذا قلت العصر الحديث- فإنما أرجع بهذا الاتصال إلى قرن مضى من الزمان.. أعني من منتصف القرن التاسع عشر حتى الآن، فيجب أن نقدم بفزلكة عن الاتصال في العصور القديمة.

البشرية متصلة من قديم بالروح، وهي بالروح تحيا وتقوم، فإذا تأملنا كأناس يفكرون ويربطون حاضرهم بماضيهم، ويربطون ظواهر هذا الاتصال في بيئاته من البشرية في جميع العصور نجد أن هذا الاتصال قام في قديم الجنس في عهود لم يصل إدراكنا وتسجيلنا في نظامنا التاريخي إليها. وكل ما يمكننا أن ندركه هو ما سجلته تواريخ الأمم في الشرق والغرب، والمنطقة الوسطى من الأرض، فهذا الاتصال عام في الجنس. ولكن إذا تأملنا في شدة ظهوره في بلد دون بلد، أو في أمة دون أمة، فإنه يلفت نظرنا ما سجله تاريخ البشرية من أن هذا الاتصال -كما يبدو لنا- قام في الشرق وفي الشرق الأقصى على صورة ظاهرة، أو أكثر ظهورا من غيره في بلاد أخرى، وأنه تتابع في حركته الظاهرية زحفا في اتجاه الغرب. وطبيعي أن أقول الشرق والغرب لأن هذا مجال إدراكنا وتصورنا لمواقع البلدان على ما اصطلحنا على تسميته. أما إذا تساميا بالوعي فليس في الأرض شرق وليس فيها غرب، فكل جزء من أجزائها هو مشرق في ذاته ومغرب بذاته لأننا أصبحنا ندرك كروية الأرض، وأن مشارق الأرض على

بقاعها تسير في بقاعها بصورة منتظمة، فأمريكا شرق اليابان، واليابان شرق الهند، والهند شرق مصر، وكذلك إذا نظرنا لمعنى الغروب والغرب. ولكني أستعمل هذا اللفظ استعمالا واقعيا على ما تعارفنا عليه، ولكنه ليس استعمالا علميا في الحقيقة، وبقايا هذا الاتصال من مشرق الأرض إلى مغربها ما زالت قائمة في تاريخ كل أمة، فاليابانيون مثلا تقوم عقائدهم وآدابهم- وهي ما أسميناه في مناطقنا الوسطى بالدين وما يسمونه هم بالآداب والعقائد- تقوم على إدراك مواصلة الحياة، وأن الإنسان كائن روحي، وأنه يتواجد على هذه الأرض، ويغيب عنها، ويعود إليها، في صورة منتظمة. فآدابهم وعقائدهم تقوم على أساس التناسخ لموجود الحياة الأرضية في قديم الحياة للحياة الروحية. وطبعا إذا قلت التناسخ فأعنيه على ما يجب أن يُفهم من هذا المعنى، لا على ما يتوارد إلى الذهن بالتناقل المنحرف من أن الأرواح تعود إلى الأشباح سجينة فيها، ولكنهم يعتقدون أن الأرواح تعطى فرصة للعمل على هذه الأرض وفي هذا النوع من الحياة، وأن هذه الفرصة تتكرر لها، أما هي فأمر آخر بعيد عن معاني الشبح والفرص. وقد عبرت الأديان عن هذه العودة بلفظ "البعث".

والاتصال في الصين أخذ صورة الحكمة والموعظة، والزهد في المادة، والتعلق بمعنويات الوجود، وتسامت هذه الحكمة في الصين إلى عقائد منتظمة، وقضايا من الحكمة، وحلول لإدراك الوجود، وأخذت وضعا عمليا بين الناس وبين المباركين من بينهم، وانتقلت هذه الحكمة وامتدت إلى بلاد التبت فالهند وفيها ازدهرت وتلونت وتألقت، ثم جاءت منطقة الشرق الأوسط حيث أينعت وأثمرت لأن الروح أبرزت فيها هديها وإشراقها وكتبها في الأنبياء، والأولياء، والأئمة والمباركين من الناس أمة وسطا، ثم امتدت غربا، وظهرت في حكمة اليونان بأمثال سقراط وأرسطو وأفلاطون وأفلوطين وغيرهم من الحكماء في العصور القديمة.. كما ظهرت في نظريات فلاسفة الألمان، وكتّاب الإنجليز والفرنسيين عن أسرار الحياة في العصور الحديثة. فإذا تأملنا في هذه الجولة وهي تسير من الشرق إلى الغرب، نجد أن وجود هذا الاتصال في أمريكا في العصر الحديث وفي أوروبا، ليس بدعا من قوانين تواجد هذا الاتصال في مساره مع مسار الشمس، أو مع ظاهر حركة الشمس على هذه الكرة الصغيرة، من حركة التفافها حول نفسها وتعريض أجزائها للشمس ماديا ومعنويا، والتفافها حول أمها الشمس ماديا ومعنويا كذلك، في دورة لحركة أخرى، ورؤيتها لما يحدث عليها من انبعاث للحقائق منها، وارتدادها بالأثر عليها من فيض الإطلاق بنفس الصورة، وعين المقاييس التي ينظر بها لما حولها من الفلك وعوالمه في الفطرة المنفرطة ابتداءً، وإلى الفطرة الكاشفة انتهاءً.

هذه نظرة تاريخية أُقدم بها لمعاني هذا الاتصال في هذا العصر. ويتميز الاتصال الروحي الآن بقابليته لإدراك وتقدير العلم، وتعاونه مع العلم، وسيره معه خطوة خطوة. وقبل أن أتحدث أو أواصل

الحديث، أو قبل أن ندخل في تساؤل أو إجابة، أحب أن أصحح بعض الألفاظ الاصطلاحية التي قارنت الحديث عن الروح.

ليس هناك ما يسمى تحضير الأرواح.. هذا لفظ خاطئ، وهذا اللفظ الخاطئ يستتبع فهما خاطئا، ويستتبع نقاشا وجدلا خاطئا. فالتعبير السليم هو اتصال الأرواح، والأسلم هو اتصال الروح، فالأرواح لا تعرف التعدد. فإذا تحدثنا عن الظواهر العلمية لهذا الاتصال فيجب أن نقول: ظواهر اتصال أو حضور الأرواح، أو حضور الروح. فظواهر اتصال الأرواح قول أوفى بالغرض. فليس هناك تحضير للأرواح، ولكن الأرواح حاضرة فعلا. إنها معنا الآن.. إنها تشاركنا هذا الجمع، وهذا الحديث، وهذا الاجتماع.. إنها أنتم.. إنها منكم، وإنكم منها، وهي معيتكم.

نحن أرواح ذات أشباح، وهم أرواح تخلت عن الأشباح. وإمكانياتهم بعد التخلي عن الأشباح أصبحت بعيدة كل البعد عن إدراكنا إذا قسناها وأشباحنا. فهم أشباح بإمكانيات الأشباح التي نملكها الآن، أو تملكنا الآن، والتي نشير إليها بمعاني الأنانية.

إذا تحدث أحدنا عن نفسه، أو عن ذاته، أو عن معناه وقال أنا، فأول ما يتوجه إليه الوعي عند السامع، بل وعند المتحدث، إنما هو متجه إلى الشبحية الذاتية للكائن المتحدث. ولكن إذا أراد أن يعرف الحقيقة، فلفظ "أنا" في الإنسان المتحدث، أو "أنت" في الإنسان السامع، هذه الأنانية تشمل معاني كثيرة.. تشمل الذات وهي من المادة، وتشمل ما وراء الذات وليس من المادة، وتشمل ما تسميه النفس وهي ليست أمرا ماديا، ولكنها معنى الصفات الغريزية التي تظهر وتتواجد في جلباب المادة، كما تشمل الوعي الفكري، والإدراك، والذاكرة الواعية للحقائق، والرغبة الجامحة في الفهم عن الوجود، وعن الذات، وعن المقدس، وعن الحقيقة، وعن الحياة، أو عن ما نسميه الله، أو عن ما نسميه المعبود أو الرب أو الخالق. فالأنانية تشمل كل هذه الحقائق.. وإذا نطقنا لفظ الله، أو لفظ الحق، أو الروح الأعظم كما يحلو للأرواح أن تعبر، أو إذا قلنا الذات الأقدس كما يطيب لنا ونحن في عالمنا الذاتي، فهذه الألفاظ لا بد أن نصطلح أولا على مدلولها من الفهم حتى يمكن أن يكون التبادل الفكري في الحديث أمرا مجديا، وله ثمرة.

فلفظ الله يتكيف عند كل منا بحسب إدراكه الديني، وبحسب مستواه في الإدراك، أو التقدير لمعاني الحق الخالق، أو الرب الراعي، أو صفة المحاسبة والمراقبة عند المأمور، أو الآمر المنتظر أمره، أو المحاسبة منه والذي يُخشى حسابه، أو المعاقب الذي يرهب جانبه. كل زاوية من هذه الزوايا يشملها اللفظ ويحيط بها، فالله لفظ جامع يشمل الكثير من المعاني ومن القضايا. ولذلك سمي الاسم الجامع أي الجامع لسائر الأسماء.

فالأرواح التي تقوم بالاتصال في العصر الحديث قدمت هي من جانبها نفسها، وعرَّفت عن معناها، وكشفت حكمة اتصالها، وأبانت عن مصلحتها في هذا الاتصال. وطبيعي أن مثل هذا الحديث الآن لا يتسع للإفاضة فيما جاء على ألسنة هذه الأرواح.

وهناك من الكتب الكثير فقد أصبحت الروحية مدرسة، وثقافة، ومكتبة، وصحافة. فالراغب في المزيد يمكنه أن يرجع إلى مكتبته الروحية، سواء في اللغات الأجنبية أو العربية -واللغة الإنجليزية غنية في هذه الناحية وكذلك سائر اللغات الأوروبية- ولكن المكتبة العربية مع الأسف فقيرة في هذه الناحية، ولو أنه يوجد بين أيدينا وفي مكتباتنا جزء يسير ترجم عن المدرسة الغربية.. ولا ننسى أن لنا تراثا مهجورا حافلا بقضايا الاتصال القديم.

إن الإنسان الذي يريد أن يعرف في هذه الناحية، أو يستزيد من المعرفة فيها، يجب عليه ابتداءً أن يتحرر إلى حد ما من منقول الوعي، ومن تقاليد المتزمتين من رجال الأديان جميعا، سواء من المسلمين أو المسيحيين أو اليهود، أو من أي دين، وأن ينظر إلى هذه الناحية نظرة جدية. وليس من اللائق أن ينظر إليها كأمر تافه بل على أنه أمر جوهري وأساسي، وله قيمة كبرى في حياة الإنسان نفسه، من حيث العقيدة وسلامتها، ومن حيث الإفادة من الوعي عن هذه القضية، لأنها وسيلة من وسائل السعادة الحقيقية للفرد في ذاته، والطمأنينة العميقة في نفسه عن دينه.

فهذا الاتصال وإن أخذ في مظهره صورا ثلاثا.. ظواهر روحية يدركها الحس مقتضية التفكير والتأمل، وقضايا علمية قابلة للبحث والتحليل والمناقشة والإدراك، وأمر ديني يتعلق بالعقائد ونفض الغبار عن جوهرها المختفي وراء المتوارث من الأقوال والأفعال مع تحريفه عن مواضعه من الاستعمال.

والواقع أن هذه الاتجاهات الثلاث حلقات متصلة في وحدة، فلا يمكنني أن أفيد من هذا الاتصال في الجانب الاعتقادي قبل أن ألمس حسيا أنه أمر قابل للإدراك والحس. فرسالة الظواهر مهمتها لفت أنظار الناس إلى أن هناك قضية، وإلى أن هناك عِلما، وإلى أن هناك تدخلا من جانب السماء أو الغيب عند أهل الأرض لإصلاح عقائدهم، وتهيئة ظروفهم ليفيدوا من عقائدهم الدينية، ويصلحوا من قلوبهم في الله. فالظاهرة الروحية تحملني على التفكير، والتفكير يقتضيني على أن أدرك الجانب العلمي في هذه الرسالة، والجانب العلمي يحملني بل يقهرني -ما دمت أخضع لمدرك العقل ولتوجيه العقل- إلى أن أفيد من هذا الاتصال في الجانب العقائدي في الحياة، أو في الجانب الاعتقادي في الله. وإذا أفدت من هذه الناحية فهذا هو هدف الاتصال. وإذا أمكنني أن أفيد فهذه هي السعادة لما يتكشف من حقائق مسعدة للحياة، لأن كل قضية من قضايا الإنسان بحثا وراء السعادة فيها عقبات ومشكلات وعجز بسبب الغفلة عن الحقيقة في هذه الحياة. هل يسعد الإنسان في المال؟ إني أنظر إلى

غني فلا أجد عنده سعادة إذا كنت أعرف حقيقة أمره.. أم هل يسعد في الصحة؟ إني أرى صحيحا معافى سليما مفتقرا إلى السعادة.. هل يسعد في الجاه؟ إني أرى أهل جاه وسلطان، إذا فحصت قليلا من شأنهم عرفت أنهم من أتعس الناس.. هل يسعد في الولد؟ إني أرى رب بيت يشقى بأولاده. هل يسعد في الزوجية؟ إذا كنت شابا أُفكر في صلة الزوجية، تتركز عندي السعادة في تحقيقها، ثم لا تتوفر بعد هذا التحقيق.

إن السعادة في حقيقة الأمر لا يوفرها للإنسان إلا إدراك حقيقي لنفسه، وإدراك حقيقي لمنشوده من معبوده من الله، وإدراك حقيقي لمآله بعد هذه الشبحية البشرية أو الأرضية، وإدراك حقيقي لمعناه قبل أن يتواجد في هذه الكينونة، وإدراك حقيقي لأزلية الحياة ولانهائيتها أو أبديتها.

إن هذه القضايا، ومعها التساؤل الدائم لِمَ فعل الله ذلك؟ لِمَ أفقرني؟ لِمَ أمرضني؟ لِمَ أشقاني؟ لِمَ وضعني؟ لِمَ رفعني؟ ولِمَ أشقى فُلاناً؟ ولِمَ أسعد فُلاناً بالمَالِ والولد؟ ولِمَ ولِمَ؟ كلنا يتساءل هذا التساؤل في نفسه عن نفسه وعن غيره، ولا يجد لهذا حلا يلائمه، أو فهما يستريح له عقله. كل هذه القضايا لمستها الأديان في بلاغها، والحكمة فيما حملت إلى الناس من الحكماء المدركين لهذه الحقائق، ومن الهداة المهتدين إليها في تاريخ البشرية. ولكنا غفلنا عن هذه القضايا لأننا لم نلمس لها في حياتنا الفردية واقعا مدركا معللا، أو نلمس لها تعليلا فيما نتساءل عنه فيمن حولنا من الآخرين.

إن الروحية تتناول هذه القضايا جميعا، وتهيئ للإنسان في وعاء ذاته غذاءً اعتقاديا محسوسا مدركا، يدركه ويعرفه عن ربه تعريفا موصولا، يستيقنه بالدأب على الرغبة فيه، وتقيم فيه حقائق لنفسه فردا فردا، وتعالج له أمره في نفسه، ما ارتبط بها محبا وسعى بودها راغبا كاسبا.

هذا الاتصال هو حنان الآباء السالفين نحو أبنائِهم الموجودين على الأرض، يرغبون أن ينقلوا إليهم علمهم وتجاربهم، وما عرفوا من الحق في حياتهم بعد التواجد في هذه الأرض على الصورة الشبحية التي نتواجد فيها نحن الآن.

فهم يتصلون بنا ليرفعوا مستوانا الإدراكي من جانب، وليهذبوا صفاتنا من جانب آخر، ويعينونا عونا عمليا حقيقيا على إدراك ما أشرت إليه من هذه القضايا في النفس، وما حول الإنسان، ويعنونون رسالتهم بأنها تعمل لأهداف محددة. إنها لا تأتي إلينا ببلاغ جديد، ولا بمناسك جديدة، ولا بنظام للمعاملات جديد، ولكنها تأتي لنا بما غفلنا عنه من الحق الصراح.. الحق الخالص الذي جاء به سائر الأنبياء، والذي يتلاقى عليه ويتلاقى فيه النبيون جميعا، وهو التعريف عن الله، وعن الفهم فيه، والفهم عنه، والفهم به، والفهم منه...

وهذا أمر جوهري، وأمر واسع عريض، قام وراء جميع الرسالات الدينية في الشرق الأوسط، وفي حكمة الشرق والغرب. كما أنهم ينظرون إلينا في حنان -كما قلت- وفي إشفاق، وهم يروننا ونحن نركب رؤوسنا، ونعمل على إثارة الحروب الباردة والحارة بيننا رغم التقدم الذي وصلنا إليه في إدراكاتنا عن المادة وعن الحياة وأسرارهما، وقد وصلت إلى أيدينا قوى الأسلحة الحديثة، وهذا أمر خطير وخطر علينا لأنه منتهى بزوال الكثير منا ونحن أبناؤهم. كما أنهم لا يريدون أن تتساقط ثمرات هذه الشجرة البشرية فجة غير ناضجة، ويريدون أن تعيش هذه البشرية في وئام وفي سلام، وأن لا تتعجل حياة مفرداتها الروحية، على أساس من الحروب وأساس من الخصام، حتى لا يذهب الناس إلى حياتهم الروحية وهم لم ينضجوا بعد كالثمرة التي تسقط من شجرتها قبل أوانها.

فهذا جوهر من جواهر اتصالهم، أو جوهر اتصالاتهم. ولو تأملنا لوجدنا أن البشرية في القرن الأخير من عمرها من الزمان قد حققت بالكشوف العلمية، وارتقى إدراكها العملي إلى مستويات متميزة عالية، في نقلة قد لا ندركها نحن الآن في هذا العصر لأن معظمنا ولد في هذا القرن من الزمان.. عصر البخار والكهرباء والقطار والسيارة والباخرة والطائرة والتلفزيون والراديو والرادار، وما إلى ذلك.. وإذا عددنا ما نتمتع به الآن من كشوف في الطبيعة انتهت إلى استغلال الكثير من القوى الموجودة في الكون حتى قوى الذرة، نجد أن هذا كله لم يتحقق إلا في نيف وقرن من الزمان. وكلما تقدمنا في تاريخ هذا القرن من أوله تضاعفت قدرتنا على كشف هذه الحقائق، وهو ما يبدوا أنه تقدم لن يتوقف. ولا زلنا نسير بخطى واسعة لكشف الكثير من هذه الحقائق، وهي كلها حقائق كونية تكشف عن قدسية الكون وحريته وإرادته.

لو قارنا هذا الذي نشير إليه من هذه الكشوف إلى هذه الظاهرة من كشف الاتصال، أو هذا الاتصال الحديث الذي بدأ من منتصف القرن الماضي، نجد أن هذا الارتقاء العلمي ارتبط بهذا الاتصال الروحي بالبشرية، وأنه كلما ارتقى واتسع الاتصال كلما ارتقى الكشف العلمي، والإدراك العلمي لأسرار الوجود ولأسرار الطبيعة. ولا زلنا حتى الآن في هذه الناحية رغم هذا التقدم على شاطئ البحر، ولم نغُص فيه بعيدا، فما ينتظرنا من هذه الكشوف الإدراكية والعلمية لأسرار الوجود أضعاف أضعاف ما وصلنا إليه، وسنصل إلى قضايا أكبر وأكبر حتى يتبين لنا أن الحق قريب منا، وأقرب إلينا من حبل الوريد، وهو معنا أينما كنا حقيقة، ولسنا فيه إلا وجوها له، ولسنا فيه إلا صفات له، ولسنا فيه إلا أسماء له. وهذا هو إدراك معنى التوحيد أو الوحدانية. إن المرسل إليه والرسول والراسل إنما هم قضايا في الحقيقة الكبرى للإنسان، تجمعهم الحقيقة الكبرى للوجود. ما الرسول إلا المرسل إليه، وما المرسل إليه إلا الرسول، وما المرسل إلا المرسل إليهم، والرسول إليهم.

فالله معنا، والله قائم على كل نفس بما كسبت، والله يجيبنا إن ناديناه، ويقاربنا إن أحببناه، ويخلصنا إن لبيناه، ويكشف الغطاء عنا ما قاربناه، ويعرفنا عنه إن تعرفنا إليه فينا، وطلبنا معرفته بنا بكشف الغطاء عنا. فالاتصال الروحي يا إخواني ما هو إلا عقيدة سليمة في الله تؤيدها جميع الأديان، ووسيلة تنقي جميع الأديان من الخبث، ويظهر بها ما في الأديان من جوهر سليم حبيب إلى النفس المؤمنة والعقل المعتقد. إنها طريق مستقيم.. إنها تفك أسر الروح من سجن المادة لتنطلق في ملكوت الله العظيم اللامتناهي.. إنها يد الله الممتدة لإطلاق هذه العقول وهذه النفوس وهذه الأرواح من سجون أشباحها، ولكشف الغطاء عنها لتدرك ما غمض من قضاياها في حاضرها ومستقبلها، فتفتح لها بذلك أسباب السعادة وطريق كسبها.

أخشى أن أكون قد أطلت عليكم، ولعل في هذا القدر الكفاية اليوم.. أرجو أن يكون واضحا لكم. ومن كان منكم يحس برغبة في مزيد من إيضاح، فليتوجه بسؤاله، ونسأل الله لنا وله التوفيق.

قالت إحدى الحاضرات وهي طالبة جامعية إنها لم تستطع فهم القول بأن الحروب أمر متصل بالروحية، وأن الناس لو عرفوا ذلك لامتنعت نفوسهم عنها ولم يقدموا عليها.. فأجابها السيد المحاضر: إنه تساؤل كريم في موضع هام وحساس، ولكن في الواقع هذا أمر يطول شرحه، وهو وحده يصلح ليكون موضوعا لسلسلة من المحاضرات وقد لمسناه في حديثنا لمسا خفيفا، فإن أردت مزيدا من إيضاح وأراه ضروريا ومفيدا، فإني معطيه في كلمات.. لقد كانت الحروب في الماضي وما زالت من فعل الحكام للشعوب. أما الشعوب فإنها تمقت الحروب بغريزتها الفطرية في حب البقاء، ولأنها هي المتحملة لعبئها في النهاية في نظام الحروب القديمة، والمتحملة لعبئها من البداية في نظام الحروب الحديثة. فكلما تقدم الجنس في المدنية كلما زاد رأي الشعب في ميزان القوى التوجيهية للدولة. فإذا أدركت الشعوب في الوعي العام -المتأثر عادة بمعلمي الشعب من أهل الصلاحية فيه- معاني الحياة وأسرارها، كانت سلطة الحكام المندفعين وراء النزوات على التوجيه الانتحاري للشعوب باسم الدفاع والحياة والكرامة، أضعف فأضعف مع تقدم الوعي وسير الزمن، وأدركت البشرية معاني الأخوة، وجمال المحبة، وعزة العفو الشاملة للجنس كله في الواقع والحس والإدراك والعلم. وهذا وحده بلسم ودواء قاطع في مقاومة وباء ومرض الحرب، وشافي في حال ظهور أعراضه على أحد أفراد المجتمع البشري من رجال الدولة، وما يسهر الكل عليه لإدراك الأخوة الحقيقية عند البشرية، بكشف رحلة الروح من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق، بعامل المزج الروحي مع القيام المادي للجنس من أسرار التكوين عن طريق الموت والمولد، في اتجاه قيام الوحدة المقدسة في الجنس، وهو ما قامت مبشرة به جميع رسالات الدين، فيصبح الاستعمار أمرا وبيلا ومسلكا معوجا عند الشعوب، كما تصبح الغلبة العسكرية

والسياسية لشعب على شعب صفة كبرياء وغطرسة مذمومة في المجتمع البشري، ويصبح العون السياسي والاقتصادي عملا أخويا لا يقتضي المقابل، ولا يوصف متلقيه بالمهانة أو الهوان. وهذا الحديث نظري عملي لا نقصد به أمة أو جيلا، فالأمة في حياة الجنس الأزلية قطرة من محيط، والجيل في الأزلية للجنس لمحة أو بارقة في دهر -وأمة أو بشرية كاملة قد لا تساوي شيئا في الحق، وفرد قد يعدل أمة أو بشرية بالحق- إن الإنسان إن تمسك بمعاني العظمة فيه فهو عظيم ويستطيع أن يكون أعظم، وإن حرص على جانب الحقائق من جلبابه من التراب فهو حقير لأنه اختار جانب الحقارة من جلباب تستره، متخليا عن جوهره من الحقيقة.

نحن نريد إبراز الأمر التافه بتفاهته، والأمر العظيم بعظمته أمام عيون الوعي، وأن نجعله في متناول يد الحس من العقل والنفس. ولأزيد الأمر إيضاحا عندك وأرجو أن لا أزيده تعقيدا، تأملي ما أشرت إليه عن عقيدة التناسخ في الشرق وفلسفتها، وخذي مثلا من دالاس وأيزنهاور وماكميلان وبينوه وأحزابهم إذا ما عرفوا أنهم سيبعثون يوما بين أهل نيجيريا والجزائر والصين مثلا، أو كشف لهم أنهم قد جاءوا لأوطانهم الحالية من هذه الأوطان القديمة لهم.. فهل يمكن أن تكون معاملتهم لأهل هذه المواطن -وهم آباء لهم في الماضي أو سيكونون آباء لهم في المستقبل- على الصورة التي يعاملونهم بها الآن؟ المنطق والعقل يقطع بأن لا.

لو ذهب أحد هؤلاء إلى دائرة روحية في بلده أو في أحد هذه المستعمرات المغلوبة على أمرها، وتكشفت له هذه الحقيقة أمام ناظريه وفي قلبه، فما مدى ذلك من الأثر على تصرفاته وهو يرى قوانين الله العادلة في البعث والجزاء تعمل عملها، وتأخذ مجراها الطبيعي العادي في حياته الحاضرة من حيواته القديمة، وعليه هو كشف فعلها فيه للكشف عن حيواته القابلة في ظلها بالوعي عنها؟

إن دالاس ومن ذكرت -ونحن معهم كمتدينين- نقول ونسلم بقضايا البعث والعقاب والثواب، ولكن ليس لدينا وعي أو فهم يقيني عن هذه الأمور، مما جعل القول والتسليم بها لا أثر له عندنا في أعمالنا اليومية، بينما أهل الشرق تأثروا بهذه العقائد تأثرا مس الحياة اليومية للفرد والحياة العامة للأمة، مساسا أصلح أمر الفرد والجماعة من ناحية، وأساء بعوامل أخرى من ناحية أخرى. ونحن نريد أن نفيد من تجارب الشعوب ومن أحداث الزمن بعد التحرر من المنقول الاعتقادي، والمفهوم الوهمي، إلا مما لمس العقل والقلب.

إن الحكام غير الصالحين لا يسوقون الشعوب إلى التناحر، أو بسط سلطان البعض على البعض فحسب، ولكنهم يعملون على استعمار قلوب أفراد شعوبهم واستهلاكها في خدمة دنياهم، وحرمانهم من عناصر الحياة الداخلية.. ولهم عذرهم إذ يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأنهم يُصلحون في الأرض..

فيحتضنون رجال الدين لبث عقائد دينية مخزية عن ظاهر عبوديتهم وناصرة لموهوم وبراق نزواتهم، فيبيعون الجنة والنار في خدمة هذه السياسة، وما دروا أن الجنة والنار صفتان للنعيم والشقاء تلازمان الإنسان أينما حل وكيفما كان. فإذا ارتقى الوعي العام للبشرية عن طريق الاتصال الروحي، وانتشار الدوائر العائلية والاجتماعية العامة، فعرف الناس كيف يموتون، ولِمَا يولدون، ومتى يبعثون، وإلى أي مكان يذهبون، أو إلى أي تطور يصيرون، وهم يسمعون لذلك عن آبائهم وأجدادهم من الجسد أو من الروح فيعلمون كيف تسير الحياة.. لو أن هذا عم وانتشر، كنت لا تجدين رجلا سياسيا متعنتا في عمله، وفي حكمه للناس، ولو أنه كان لكان الناس له بالمرصاد يحولون بينه وبين ما ينحرف إليه بسليم وعيهم، ولتطهرت المساجد والكنائس والبيع من استعمالها لخدمة الأغراض المنحرفة باسم المثل العليا والمبادئ السامية، ولتلقى الإنسان في غرفة الاتصال الموعظة الحسية بكشف قيم الأعمال وأثرها على الآباء والأجداد، ولم تصبح المثالية عبارات متناسقة تصدر عن المنابر والهياكل خالية من الروح والحياة.

وعقب الدكتور عثمان خليل العميد الجامعي رئيس مجلس المحاضرة، موجها حديثه للآنسة: لو أننا جميعا أصبحنا على صلة كريمة بالأرواح، وأصبحت مصدر إرشاد لنا، لتغير حالنا كثيرا، ولأصبحنا نتعامل في النور، ولاختفت من بيننا مظاهر العدوان والشر، ولأنه لا يجني على أهله إلا السوء ... فالروحية هي هدي جديد يقضي على الفوارق بين البلاد وبعضها، وعلى التعصبات الدينية بين الأفراد، وعلى الفوارق بين الطبقات، ويهيئ الأسباب لمجتمع روحي متكامل الخلق، مستقيم الخلق، تقوم جماعاته ومفرداته في وحدته بوظائف الأعضاء السليمة في الجسم السليم.

سأل طالب جامعي: هل للروحية قوة يمكن بها أن تنصر جانب السلام في الأرض على جانب الحرب؟ فأجابه المحاضر: لقد أجبت على هذا ببيان ما للقوى الروحية من توجيه لقوى الوعي، باعتبار البشرية دائما لها البشرى، وسأزيدك من حيث هذا الرباط، وتفصيل أثر كل شق منهما في الآخر.

يجتمع في البشرية الأرضية أناس هم أبناء لأصل واحد ولكنهم حزبان رئيسيان، كل حزب بما لديهم فرحون، وما افترقوا إلا بعد الذي جاءهم من العلم من نبع ووحي ذواتهم.. يقومون في صعيد، وتجمعهم دار، وتسير بهم مركب. أما عالم الروح فأهله لا يعرفون للمكان سلطانا أو حدودا، ولا يعرفون للزمان عنوانا أو وجودا، فإحاطتهم بالمكان المدرك للبشرية أمر طبيعي، وسبقهم وتعقبهم للزمان المدرك عندها بمولد الحقائق وقيام الأحداث أمر عادي. إن ما صدر عنه أصل البشرية وهذا الأصل نفسه ما زال قائما، وإن ما يصدر عن حزبيها هو عين ما يرتد إليها كفعل للغيب في القانون الخالق، وإن ما يصدر عن حزبيها إنما يرفع إلى مصدره من الأصل الواحد، أو إلى مصدر هذا المصدر في حال رقيه وحمله

إليه، وأن ما يصدر من الحزبين، إما أن يتجه كل في اتجاهه على نقيض من الآخر، فلا يجتمعان إلا على هذه الأرض صدورا أو ارتدادا، ولا يعرفان الصراع والتزاحم إلا عليها. أما حياة كل منهما الروحية فلا تعرف الصراع والتزاحم، وتقوم على النظام والتنسيق والعمل الدائب لا انفصال لهما. إن الصراع القائم على الأرض من اختلاف النظر للأشياء والحكم عليها يزول بزوال الأشياء عن النظر والتقدير، ويمكن أن يتلاقى الحزبان في النظر والحكم على الأشياء، وإن اختلفا في الاتجاه في حال الحياة الروحية لهما التي لا تعرف سلطان المكان ولا حدود الزمان عند كل منهما عن طريق الصلاحية الذاتية. فإذا تلقت الأرض رجع السماء معها مصلحا في ذاته كان هذا الرجع على وفاق في النظر من حيث ما يجب عمله، ومن حيث الحكم على الأشياء والنظر إليها. وكلما صدَّرت الأرض بظاهرة الموت صالحين من الحزبين، كلما عجلت بوارد منهما صالحا للتعاون على نشر الأمن والسلام. وكلما نشرت عقيدة السلام في الأرض ووجدت أنصارا من البشرية، استجلبت من قوى السلام الروحية العاملة على نشره المزيد، بمعدل يدخل في أضعاف مضاعفة لما يصدر عنهما.

وإنكم باستماعكم لي الآن، وبما صدر عنا من ابتهالات في أول هذا الحديث، قد ساهمنا بقوانا جميعا في تأييد روحي لنشر قضية السلام، وهيأنا للقوى الروحية العاملة لأجهزة ولأسلحة البشرية التي عندنا لتعمل بها. ومن السخف والخطأ أن نظن أن عالمنا الشبحي على الأرض يحكم في سير أحداثها بعيدا عن قوى غيبية غير منظورة.. ولأضرب مثلا من الواقع.. لو تأزمت الأمور بين دولتين كبيرتين أو صغيرتين بما يعرض الأمن والسلام للخطر، وعُرف هذا لعالمنا أو لم يُعرف - وهذا أمر في دائرة علم الأرواح التقليدي أو العادي - ففي دائرة روحية ممتازة في أحد من البلدين أو غيرهما يطلب الروح المرشد مزيدا من قوى روادها بصلوات وبإطالة، أو مزيد من الجلسات لهذا السبب، ويتوجه بهذه القوى إلى رئيس الحكومة، وأجهزة الحكومة في كل من الدولتين، ويعطيه إلهاما ما قويا يحل لما اختلف عليه، ويقذف في روعه رغبة جامحة للمسالمة، فإذا بالأزمة تتبخر وتتلاشى. وقد يصارح الروح المرشد أبناءه بتفاصيل ما جاء به إن رأى محلا لذلك في تدريبهم، وقد يكتمه عنهم إن رأى هذا أصلح لأمر تدريبهم. فإن صارحهم كانوا على علم بسير الحوادث وبمساهمتهم فيها، وإن أخفى عنهم أدركوا بأذواقهم تعليلا لما طلب إليهم في أوقات مختلفة من صلوات أو تركيز لقواهم لتكون تحت تصرف السيد المرشد. وهذا العمل والمداومة عليه إنما هو جهاد يبتر الرذيلة في شتى صورها، وعون لقوى الفضيلة في جميع ألوانها يقصد به وجه الله، وليس فيه إلا المعاملة مع الله، ولا يستطيع الإنسان أن يجعل منه قوى مغاضبة لله، أو متعارضة مع الخير للإنسانية. وقد قام الإسلام بهديه وتعاليمه على أساس من هذا الذي تكشف عنه الروحية في هذا العصر، وهو ما كان مدركا لخواص أمته من الفقراء إلى الله.

ولعل في حديث الرسول (عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)[1] بعد رجوعه من غزوة وقد سئل وما يكون ما هو أكبر فقال (مجاهدة النفس)[2]. وإن في ابتهالات المصلين من أي أمة ما يوفر للأرواح العاملة وسائل مقاومة القوى الشريرة في نفوس الطغاة والمنحرفين. إن الحروب -وهي اصطدام قوى مادية- ما هي إلا أثر لاصطدام قوى فكرية صادرة عن البشرية، وعما وراءها من عوالم روحية ملهمة.

أضواء على الطريق

- (عش في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من الموتى)[3] تكن مؤمنًا.
- (من دلّك على الدنيا فقد غشك ومن دلّك على العمل فقد أتعبك ومن دلّك على الله فقد نصحك)[4].
- (اُعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[5]
- {... إني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان.}[6]

مصادر التوثيق والتحقيق

1 حديث شريف رواه البيهقي بسند ضعيف، ورواه الديلمي بلفظ "قدمتم من خير مقدم، من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه"، وفي رواية البيهقي: (قالوا وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب.)، كما ورد الحديث الشريف في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي.

2 حديث شريف: (المجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ). رواه الترمذي

3 حديث شريف رواه عبد الله بن عمر: "أخذ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببعضِ جسدي وقال: كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ وعُدَّ نفسَك في الموتَى." جاء بهذا اللفظ عن ابن عدي". وأخرجه البخاري بلفظ: " أخَذ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمَنكِبي - أو قال بمَنكِبَيَّ - فقال: (كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ) قال: فكان ابنُ عُمَرَ يقولُ: إذا أَصبَحْتَ فلا تنتظِرِ المساءَ وإذا أمسَيْتَ فلا تنتظِرِ الصَّباحَ وخُذْ مِن صحَّتِكَ لِمرضِكَ ومِن حياتِكَ لِموتِكَ".

4 مقولة للشيخ ابن مشيش.

5 من حديث شريف مجمع على صحته جاء به جبريل عليه السلام عن معنى الإحسان. أخرجه البخاري في صحيحه.

6 سورة البقرة- 186